تنشر
للمرة الأولى
في كتاب

جائزة نوبل للآداب 1988

نجيب محفوظ

همس النجوم

قصص



نجيب محفوظ

همس النّجوم

تقديم

محمد شعير



تقديم

بقلم محمد شعير[1]

[1] كاتب وصحفي في **أخبار الأدب** المصرية، وُلد عام ١٩٧٤، ودرس الأدب الإنكليزي. حصل على العديد من الجوائز من بينها "جائزة دبي للصحافة". صدر له: **أولاد حارتنا: سيرة الرواية المحرمة، كتابات نوبة الحراسة: رسائل عبد الحكيم قاسم، مذكرات الآنسة أم كلثوم، إدوارد سعيد: المفكر الكوني** (بالاشتراك مع آخرين). ويصدر له قريباً كتبٌ تتناول سيرة حياة نجيب محفوظ.

"أنا ملك التمزيق"، هكذا وصف نجيب محفوظ نفسه في إحدى جلسات "الحرافيش" عندما سألوه عن أوراقه ومخطوطاته. أوضح لهم أنه مرّ عليه وقت كان يجمع فيه كل ما كتب، وما يُكتب عنه أولاً بأول، وبعد حين كان يرجع إلى ما جمعه يقلب فيه، فيجده مكرراً على نحو أو آخر، فصار يمزق كل ما يأتيه أولاً بأول خشية أن يمتلئ البيت بالأوراق المعادة، ثم راح يمزق الباقي تدريجيّاً بعد أن عجز عن ترتيبه. لكن نجيب محفوظ لم يتخلص من كل أوراقه، فقد كانت زوجته حريصة على الاحتفاظ بكثير منها، وهو كان ينظم ما نُشر وما لم يُنشر.

عندما منحتني ابنته أم كلثوم صندوقاً صغيراً يتضمن أوراقاً عدة تخص محفوظ، شعرت بلذة كأنني على وشك اكتشاف مقبرة فرعونية. بعد ترتيب الأوراق

أصبح لدي صورة كاملة عمّا احتفظ به محفوظ: بعض مخطوطات روايات، دفاتر سجّل فيها ملاحظات سياسية أو عن رحلاته النادرة، عقود ترجمة، مراسلات ذات قيمة عالية... ومفاجآت أخرى كثيرة. كان الاكتشاف أشبه بكنز أدبي بكل ما يتيحه ذلك للنقاد من دراسات جديدة ومختلفة على تاريخ النص وتطور الشخصيات وأسلوب الكتابة عند صاحب **الثلاثية**.

من ضمن الأوراق ملف كامل كتب عليه بخطه: "تحت التجربة: يتحدد الطول والنوع والمعالجة"، ثم شطب على هذه الجملة ليكتب: "قصص منشورة تمت كتابتها (١٩٩٣-١٩٩٤)". يضم الملف نحو ٤٠ قصة قصيرة، لكن لم تُنشر القصص وقت كتابتها، وكان محفوظ وقتذاك قد بدأ نشر **أصداء السيرة الذاتية**، ثم جاءت محاولة الاغتيال في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٤، لتظل القصص حبيسة الملف.

يعود إليها محفوظ بعد سنوات لينشرها في مجلة **نصف الدنيا**، وقد احتفت المجلة بالنشر الذي كان يأتي دائماً تحت عنوان "آخر ما كتب صاحب نوبل". وقد اختار محفوظ من بين هذه القصص قصة "السهم" لتتصدر مختارات قصصية نشرتها "هيئة الكتاب المصرية" عام ١٩٩٦، بوصفها "أحدث ما كتب محفوظ وقتها"، لكن لم تُنشر في أيٍّ من المجموعات القصصية بخلاف المختارات التكريمية. وفيما بعد، اختار محفوظ

عدداً من هذه القصص لتشكل مجموعتيه القصصيتين الأخيرتين: **القرار الأخير** و**صدى النسيان**. لكن ظلت ثماني عشرة قصة قصيرة خارج الأعمال الكاملة بطبعاتها المختلفة، من بينها قصة وحيدة لم تُنشر على الإطلاق بعنوان: "نبقة في الحصن القديم".

لا تختلف قصص هذه المجموعة عن عوالم نجيب محفوظ الإبداعية، فهي امتداد لحكايات الطفولة التي استعادها في **حكايات حارتنا** (١٩٧٥)، وكذلك في **صدى النسيان** (١٩٩٩)، ولكنها محملة بالرمز وحكمة الشيخ الكبير.

تدور القصص في "الحارة"، عالم محفوظ الأثير المفعم بالحياة، حارة محددة الملامح تنتهي بقبو (حيث يعيش من لا مأوى لهم). يرتفع فوق القبو "الحصن القديم" حيث تسكن الأشباح والعفاريت. القصص أبطالها: فتوّات، ومجاذيب، ومنجمون، وموسوسون، وأولياء، وأصحاب كرامات، وهاربون، وشيوخ يراقبون ويتدخلون في شؤون الحارة وحياة أهلها، وأئمة زوايا... وجوه وأقنعة تخفي الكثير.

في الحارة ثمة هاربون من ثأر أو تقاليد قديمة، وأحياناً من أجل الحب أو العمل، وهناك أيضاً عائدون بعد ثراء أو بعد حكمة وكَشف. هم دائماً أصحاب النبوءات والأقوال الملتبسة التي يتبادلها أبطال

القصص، فتتحقق على نحو ما، ويكون مصيرهم دائماً الاتهام بالجنون أو الخروج على التقاليد.

الزمن بطل رئيسي في الأحداث، تماماً كما كانت **أولاد حارتنا**. توحيدة جميلةُ جميلات الحارة، يعصف الزمن بجمالها، وتقول للراوي: "إذا كنت لم تعرفني، فليس الذنب ذنبي". توحيدة يستعيدها محفوظ هنا بعد أن كتب عنها من قبل في **حكايات حارتنا**: "أول موظفة في الحارة، تذهب إلى الوزارة وتخالط الرجال!".

يختبر محفوظ في قصصه الحارة بكل أحوالها، عندما تهب عليها "العاصفة" التي تقتلع كل شيء ويعم الخراب والنهب والسلب وتضيع الأموال وتهتك الأعراض. يختبرها عندما تدهم نوبة بكاء أهلها فجأة، فتصيب الجميع وتنتقل كالعدوى، فيتحرك مفتش الصحة في محاولة لكشف الأسباب ويكاد يبكي هو الآخر. لكن محفوظ في رهانه يبحث عن "قلة" ممن ظلت ثيابهم بيضاء، يتبادلون الهمس والشد على الأيادي في الظلام، ويتطلعون بعزم وصبر نافد إلى طلوع الفجر... أو عن تلك النغمة الراقصة التي تتهادى من بيت "حسن الآلاتي" ليرقص الجميع ويتوقف البكاء. وهكذا، تستمر الحياة، كما يراهن محفوظ دائماً، بالحديقة والناي والغناء، بهؤلاء الباحثين عن مشرق النور والعجائب، بالفن، رهانه الأبدي.

مطاردة

رجعت زكية إلى الحارة بعد غياب عام وعلى ذراعها طفل رضيع. لم يشعر أحد بغيابها ولا برجوعها، وما زالت نحيلة شاحبة أو ازدادت نحولاً وشحوباً، وجفّت مسحة الجمال في وجهها فلم يبقَ لها إلا شبابها المهجور. ونقّلتْ عينيها بين البيوت الثلاثة التي اشتغلت بها خادمة عقب وفاة أمّها سكينة الغسالة. ثم ثَبّتَتْ عَيْناها على البيت الأخير من ناحية القبو، بيت المعلّم عثمان بائع العصيّ والمظلات. ولم يكن فقرها يسمح لها بإهدار أي وقت، فاختارت أن تعمل بائعة سريحة لحلوى الأطفال مثل الملبن وبراغيث الستّ. وبيد أمسكت بمقطف مملوء بقراطيس الحلوى واحتضنت بالأخرى وليدها، وجعلت تنادي على الحلوى متنقلة من مكان إلى مكان وكأنها أكثرت من الوجود أمام دكان المعلّم عثمان. تعمدت كثيراً أن تسمعه صوتها أو أن تريه ذاتها. ولم يستطع أن يتجاهلها إلى الأبد فانتهز فرصة خلوّ المكان وأشار إليها فذهبت إليه. تبادلا نظرة كانت من ناحيتها ثابتة وقوية، أما من ناحيته، فكانت مراوغة. وسألها: "إيش حالك يا زكية؟".

فقالت بخشونة: "نحن نحمد الله على أي حال".

– هل أنت بحاجة إلى شيء؟

فأجابت بجرأة: "ربنا هو الرزاق... ولكن هذا الطفل يريد حقه الذي شرّعه الله...".

- كلام طويل ولا معنى له، قولي باختصار إنك محتاجة...

فقالت بحدّة: "بل قلت ما قصدت قوله وأنت سيّد من يفهم".

فصاح بتوتّر: "أنا لا أفهم شيئاً... إبعدي عني... هذا جزاء من يعطف على من لا يستحق...".

وتوارى في دكانه وهو يرتجف غضباً، وواصلت هي عملها حول الدكان أو غير بعيد عنها. ولم تتزحزح عن خطها، ساعة بعد أخرى. بدت صابرة صامدة، أما الرجل، فكان يفور ويرتعش وتنثال عليه الأحلام الدموية. وقال لنفسه وهو يشعر بالإرهاق يزحف على روحه: "يا ويلي... ما عدت قادراً على التركيز في عملي". وتنغص عليه عيشه، في الطريق وفي البيت. وشعر بأنه وأسرته قد أصبحوا على كفّ عفريت.

وفي يوم وهو عائد إلى بيته همس لها: "إذا تماديت في شرّك، فلن يعثر على جثتك أحد...".

ولكنها لم تخف ولم تتراجع وتسلّت بملاعبة الطفل. ولم يعد المعلّم عثمان يتحمل أكثر من ذلك، ولم يعد يطيق منظر الدنيا والبنت تحوم حول دكّانه حاملة طفلها، فخلا إلى صديقه شيخ الحارة، وكشف له عما يؤرقه، وختم حديثه بقوله: "أخشى ما أخشاه أن تخلق لي فضيحة من لا شيء".

ونظر شيخ الحارة إليه طويلاً دون أن يعلن أي شك في قوله، وقال له: "لو لم تكن المرأة مدعية وكاذبة، لنصحتك بأن تنهر كبرياءك وتعمل بما يرضي الله...".

فقال له الرجل بصوت متهالك: "لكنها مدعية وكاذبة".

- ولكن في وسعها أن تلطخك بفضيحة، وسوف يصدقها الناس.

- أنت لن تسمح بذلك.

فتفكر الرجل ملياً ثم قال: "سأعمل على إقناعها بمغادرة الحارة نظير نفقة شهرية، اعتبرها صدقة، ويكون في ذلك الحلّ المرضي للجميع...".

فتنهّد المعلّم عثمان قائلاً: "سأفعل ما تشير به عليّ...".

واستدعى شيخ الحارة زكية في اليوم التالي وقال لها: "سأزفّ إليك حلّاً سعيداً...".

وأنهى إليها ما تم الاتفاق عليه، ثم قال: "ستقيمين في مسكن محترم، وسأوصي بك شيخ حارتك الجديد".

وساد صمت التفكير والانفعالات المبهمة. واستبطأ شيخ الحارة الاستجابة المرجوة، فتساءل: "هل سمعتِني؟".

فانتصب عنقها وقالت: "سمعت يا شيخ حارتنا، ولكنني لن أذهب".

فصاح شيخ الحارة غاضباً: "أنت مجنونة ولا شك...".

– هذا الولد ابنه، وهذه صدقة لا أقبلها.

– وماذا تنوين أن تفعلي؟

– سأبقي الولد تحت عينيه يذكره دائماً بجريمته...

وواصلت زكية حياتها اليومية، تبيع الحلوى وترعى وليدها. وتجول هنا وهناك حول الدكان. وكان المعلّم عثمان يتردّى أكثر وأكثر في تعاسة خفية، أما غضبه، فيزداد سواداً وحرارة. ولعله لأول مرة في حياته يفكر في القتل.

ولكن الذي بدر منه شيء آخر، فقد مضى في عز وقت العمل إلى شيخ الحارة منهار الإرادة تماماً. وأمسك بيده كأنه يستغيث به، وهتف: "سأتزوج وأعترف بالوليد، أما المسكن، فليكن في حارة أخرى...".

فقال شيخ الحارة بيقين: "هذه المرأة لن ترجع عما تريد خطوة واحدة".

توحيدة

يقع البيت الأبيض قبل القبو بدارين إلى يمين القادم من الميدان. وقد أطلق عليه ذلك الاسم لما عرف به أهله من بياض البشرة. أما أنت يا توحيدة، فكنت درّة التاج في البيت الأبيض، فسبحان الذي خلقك فسوّاك على أحسن صورة، وجعل جمالك مثالاً لم أعرف له مثيلاً، وإن كان أثره الكامن في خيالي أكثر كثيراً من معالمه الباقية في الذاكرة. وعموماً عرفنا سكان ذلك البيت من بعيد إلّا توحيدة التي كان من حسن التوفيق أن انضمت إلى أسرتنا بالزواج، فعرفتها عن قرب، وخبرت العديد من سجاياها، وثملت على حداثة سنّي بوردية بشرتها وسواد شعرها ونغمة صوتها التي كنا نحاول تقليدها مزهوّين فرحين. وفي البدء، تلقيناها بإجلال وحذر، ولكن سرعان ما تفتحت الأبواب وغمر الأنس أخاديد الوجل، فإذا هي البساطة بغير افتعال والأنس والإنسانية والطرب. ولم نكن نسينا يوم جاءت عربة المدرسة الإفرنجية لتحملها في الميعاد الثابت كل صباح. وقتذاك، قالت الحارة إن البنت تفرنجت، والمتفرنج شيء جديد ومثير ومستفز وجدير أيضاً بالزهو. اليوم أصبحت تقيم معنا بكل ما ترطن به من فرنسية وإيطالية، مرتدية أحدث الموضات، وتردد أفكاراً لديكارت وأشعاراً لبودلير وتعزف على البيانو بالنوطة مقطوعة لبيتهوفن، ولكن ذلك كله لم يرعبنا ولم يغضبنا بفضل جمالها الساحر، ومرحها الدائم، وإدمانها حكي النوادر الساخرة. أكثر من ذلك كله أن

أطلعتنا على جانبها الآخر الطلي، فالجميلة تعشق أيضاً أصوات منيرة وعبد الحي وسيد درويش، وكما عزفت "في ضوء القمر"، غنَت "طلعت يا ما أحلى نورها"، وتحفظ المختار من أشعار شوقي وحافظ، وما غطَى على ذلك كله أنها كانت تحافظ على الصلاة، والصيام في رمضان، وتحرص على سماع التلاوة للقرّاء المشهورين مثل علي محمود وندا. وأعجب من ذلك كله عندما كانت تعطي كفها لأم رقية وتقول لها بصوتها المليح: "خبريني عمّا تخبّئه لنا الأيام...".

فلا بيتهوفن ولا ديكارت ولا بودلير استطاع أن ينزع من أعماقها وصايا عهدها القديم الذي لُقنته في حارتنا، فما زالت تؤمن بالبخور والعرّافين ولا تشك في وجود العفاريت بالحصن القديم فوق قبو حارتنا.

وقد فرقت الأيام بين فروع الشجرة الواحدة من أسرتنا، فذهب كل إلى المكان الذي يناسبه. وانتقلت هي إلى الزمالك، وعاشت فترة في الخارج ثم رجعت إليها، وصارت أمّاً وصارت جدّة ولكنني لم أرَها عمراً مديداً وظللت محتفظاً لها بصورة الشباب والمرح والجمال والسحر الجامع كلَّ شيء.

وكنت جالساً على طوار فندق أرنو من بعيد ومن وراء الكورنيش إلى البحر الأبيض عندما وقفت سيارة بحذائي مباشرة. ورأيت عجوزاً تجلس إلى جانب السائق وتلوّح لي بيدها. لم أعرفها بحال من الأحوال. وجه يمكن أن يُعتبر نموذجاً للشيخوخة. وجه ضامر

جداً، شديد البياض عميق الشحوب غارق في التجاعيد، وعلى العينين نظارة سوداء. ولما رأت ترددي ودهشتي، تساءلت: "ألم تعرفني؟".

عند سماع نغمة الصوت انفجر الماضي بغتة كأنه قارورة عطر تحطمت...

وهرعت إليها متعثراً في الحياء والحنين.

تبادلنا كلمات مألوفة وأنا غارق في تأملات بعيدة.

وضحكت العجوز وقالت: "إذا كنت لم تعرفني، فليس الذنب ذنبي!".

عُرف من قديم بابن الحارة. وما عُرفت له أمّ أو أب. وكانت أرض الحارة مرتعَهُ والقبو مرقدهُ وتقديم الخدمات الصغيرة حرفتهُ ومرتزقهُ. ويُرى هنا وهناك بجلبابه الوحيد ووجهه الباسم وقناعته المطلقة حتى يحنّ جسمه النحيل إلى الراحة، فيمضي إلى القبو ويرقد على فراشه الترابي غير بعيد من باب الحصن القديم. ويوماً رأى حماراً يجرّ كارو ويوشك أن يهرس قطة صغيرة لاهية، فصرخ وهو لا يدري: "ارجع"، ولكن الصرخة أصابت الشيخ العصفوري وهو منطلق صوب الميدان، فخاف وتشاءم وتوقف عن السير وهو يغمغم: "أعوذ بالله"، وكان ممن يعتقدون الأسرارَ الخفية. وإذا بحجر كبير يسقط أمامه على بعد خطوات معدودة لم يدرِ أحد كيف ولا من أين سقط. ووضح لكل من رأى المشهد أنه لولا توقف الشيخ العصفوري تلبية لنداء ابن الحارة، لدكّه الحجر دكّاً. وتشهّد الشيخ وكاد يفقد وعيه من شدة التأثر، ثم نظر إلى ابن الحارة بامتنان وخشوع وقال له: "أقسم أنك إنسان طيّب وأن فيك شيئاً لله".

وأمن الناس على قوله، فارتقى ابن الحارة من شبه متسوّل إلى وليّ أو شبه وليّ. وذهب وجاء في رعاية الأعين المحبّة، وتيسّر رزقه من قطع الخبز والملاليم. وسعى قوم إلى كشف الغيب على يديه ولكنه لم يستجب ولم يدّعِ ما لا علم له به، فازداد القوم له احتراماً وقالوا إن كراماته تتجلى مما يُجري على لسانه بمشيئة الواحد الأحد. ولدى كل يوم يمرّ ازدادت مكانته

في القلوب حتى ألِفهم وألِفوه. وذهب ذات ليلة إلى مرقده فوق أرض القبو وقبل أن يهبط عليه ملاك النعاس انتشر الصمت وعمق حتى أنذر بمجهول سيقع. وانتبه ابن الحارة إلى ما حوله في ترقّب غير مفهوم، فإذا بصوت يتهاوى إليه واضحاً ومؤثراً وعميقاً، قال: "يا ابن الحارة، اذهب إلى المعلم زاوي وقل له أن يردّ كل ملّيم حرام في ماله إلى مستحقه...".

تبادر إلى ذهنه أن أحدهم يداعبه؛ لكن سرعان ما نبذ الفكرة متذكراً المشاعر التي انتابته وسجايا الصوت الغريبة التي نفذت إلى أعماقه. وداخَله خوف. داخله خوف رغم اعتياده الوحدة والظلام والنوم على مقربة من الحصن القديم، مقر عفاريت حارتنا منذ الأزل. وجلس وحده في الظلام وتساءل: "مَن المتكلم؟".

فردّ إليه الصدى من منحنى القبر وطار النوم من عينيه ووجدانه. وأمل أن يكون الأمر كله حلماً أو وهماً وهمّ بالرقاد ولكن الصوت جاءه مرّة ثانية مدفوعاً بقوة أشد: "يا ابن الحارة، اذهب إلى المعلم زاوي وقل له أن يردّ كل ملّيم حرام في ماله إلى مستحقه".

وارتعد الرجل، وأدرك أن الصوت أقوى وأصفى وأعجب من أن يكون لأحد من أهل الحارة. ولعل دوره جاء ليتصل بسكان الحصن القديم كما حدث لكثيرين من أهل الحارة. ولذلك لا مفرّ من الطاعة. رغم منزلة المعلم زاوي وإحسانه إليه أكثر من مرّة، فلا مفرّ من الطاعة. وتردّد قليلاً حتى أحس بنذر الصوت قادمة

فقام من فوره متعلقاً بعزم جديد، وسار مستنداً إلى ثقة لا حدّ لها حتى وقف أمام المعلم زاوي في مجلسه بين شيخ الحارة وإمام الزاوية على مقربة من المقهى. وتوقف الثلاثة عن التدخين، ونظر زاوي إلى ابن الحارة وسأله: "ما لك؟... هل عضّك الجوع؟".

فقال ابن الحارة بصوت ثابت: "معي لك أمر من الحصن القديم، قال لي صوت أن أذهب إليك وأقول لك أن تردّ كل ملّيم حرام في مالك إلى مستحقه...".

وانعقدت ألسنتهم لحظات من وقع الدهشة. وكان المعلم زاوي أول من أفاق منهم فقام دائراً حول النارجيلة وهوى بكفّه على خدّ ابن الحارة فقذف به إلى منتصف الحارة صارخاً، وردّه شيخ الحارة إلى مجلسه. وبدا الاستياء على وجوه جميع من شهدوا الحادثة وكانوا بسيرة زاوي من العارفين. ومضى ابن الحارة وهو يتعثر، وظن أن الصوت أراد العبث به ورجّح أن يكون لعفريت من الأشرار. وتناقل الناس الخبر ومالوا إلى الاعتقاد بأن صاحب الصوت من العفاريت المؤمنين الأخيار، وإلا ما اتفق رأيه معهم في زاوي وماله.

ومضت أيام قلائل قبل أن يعود الصوت إلى اقتحامه. ولما سمعه، انزعج انزعاجاً شديداً وقعد في الظلام في تعاسة بالغة وقال: "أكون مجنوناً لو أطيعك مرة أخرى".

فرجع الصوت يدوي في فراغ القبو أن "اذهب إلى المعلم زاوي... إلخ"، فقال بتوسّل: "إذا كان الأمر يهمّك،

فلماذا لا تنفذه بنفسك وأنت أقوى مني، أنا المسكين، آلاف المرات؟".

فتكرر الصوت حازماً صارماً غير قابل للجدل.

وفي الحال، قام ابن الحارة واقفاً وعاجزاً عن التصدي لضعفه. وعاودته نشوة الجرأة والعزم كأنما شرب قارورة من الخمر. وذُهل القوم لما رأوه قادماً نحوهم. ونحّى زاوي خرطوم النارجيلة عنه مسدّداً نحوه نظرة من نار. وتلاقت أعين الساهرين في المقهى عند الرجل ذي الجلباب الواحد، فقال شيخ الحارة بنبرة منذرة: "اذهب بلا مشاكل...".

ولكن ابن الحارة صاح مخاطباً المعلم زاوي: "الصوت يقول لك أن تردّ كل ملّيم حرام في مالك إلى مستحقه".

ووثب زاوي عليه وانهال على وجهه لطماً وعلى جسمه ركلاً حتى سقط على الأرض وهو يتأوّه ويتلوّى والدم ينزف من أنفه وفيه...

وحدث ما لا يحدث في الحارة إلا نادراً، إذ قام الجالسون وأقبل المشاهدون لصدّ الأذى عن ابن الحارة. وبين الأخذ والردّ، تمادوا في الغضب فوجدوا أنفسهم يخوضون معركة حامية...

وكانت ليلة سوداء كما وصفها إمام الزاوية. امتلأ المكان بالغاضبين وسالت الدماء وسقط زاوي كما سقط ابن الحارة من قبل. ونهض شيخ الحارة لإعادة النظام وهو يعجب من كثرة الجرحى. وقال شيخ الحارة

للإمام: "ليلة عجيبة، فاقت في غرابتها حكاية العفاريت بالحصن القديم...".

السّهم

على كثرة ما شاهدت وما سمعت، فإنني لم أعرف مثيلاً لحياة حارتنا في الفترة التي عرفت بالفترة السوداء. فترة غريبة لم تمرّ حارتنا بمثلها فيما سبقها ولا فيما تلاها. ولعل خير ما وُصفت به ما قالته عنها أمّ فهيم الكواء، أنها قد مستها سبعة شياطين. ولا أنسى يوم سألت صديقاً من أهل العمر والخبرة: "ما هذا الذي يجري تحت أعيننا؟".

فأجابني الرجل بأسى: "الظاهر أن الأزمنة التي تمرّ بالناس تمرض وتموت مثل بقية المخلوقات".

والغريب أنه لم يعد منكر يخفى على أحد، ولم يعد أحد يخجل من الجهر بسوء. وسمعت أمّ بسيمة الداية تقول ساخرة: "سنرى الفاسقين عرايا تحت الشمس، ونشهد اللصوص وهم يسرقون في حراسة العساكر...".

وفي كل يوم، نستسلم تاركين التيار يجرفنا، وكلما عضّنا الندم، هرعنا إلى ذكريات الماضي الجميل. أما شيخ الحارة، فلم يضنَ بجهد، أو هذا ما تصوره، فكان يخرج من دكانه ويقطع الحارة من القبو حتى الميدان وهو يردد لدى أي مناسبة: "لن يفلت من القانون منحرف".

ولم يقصّر خفير الدرك في سهره، على حين راح إمام الزاوية يطارد الأشباح بالمواعظ والأمثال وحكايات السلف الصالح.

ولكن جاء مصرع المعلّم زين البركة فأشعل نار الفزع والفضول. كان يوم السوق أو يوم السلب والنهب كما

يقولون، وماجت الأرض بالمساومات والغزل والشتائم. وتبختر زين البركة فوق حماره الحصاوي وتابعه يتقدم صائحاً: "وسع يا جدع... المعلّم زين البركة...".

وقبيل المقهى ندّت عن المعلّم صرخة مشؤومة. حاول الرجل الوقوف فعجز، ثم تلوّى، ثم انطرح فوق البردعة. وهرع إليه الخلق وحملوه إلى أقرب أريكة في المقهى وقد رسمت نقاط الدم خط مسيره. وجاء شيخ الحارة مهرولاً، وجعل يفحص المعلّم فبكى عليه في صمت شامل. واعتدل مكفهرَ الوجه وقال: "فارقه السر الإلهي... مات المعلّم بركة...".

وفجّر جلال الموت في القلوب الخشوع والرهبة رغم إجماع كثيرين على كراهية المعلّم. وراح شيخ الحارة ينظر في الوجوه فقال أكثر من صوت: لم يقترب منه أحد.

فقال الرجل بحنق: "ستجنَ الشرطة والنيابة والطبيب الشرعي".

وكان أعجب ما أسفر عنه البحث الأولي أن المعلّم قتل بسهم أصابه في القلب. لم تفهم الكثرة ما تعنيه كلمة "سهم". ودار كلام كثير، قبل أن يدرك معناه. وقال شيخ الحارة: "السهم ينطلق من قوس... وحامل القوس لا يمكن أن يكون بعيداً... لا شك أن كثيرين منكم رأوه وهو يرتكب جريمته...".

ولكنهم بالأيمان الغليظة أقسموا أنهم ما رأوا أحداً. قال شيخ الحارة بضيق: "أنا عارف أن زين البركة لم

يكن محبوباً...".

فقال صوت: "المكروهون يفوقون الحصر ولكننا لا نشهد إلا بما نعلم".

وجال الشيخ حول المكان جولة، وفتش البيوت المطلة عليه ولكنه لم يعثر على ما يثير الريبة. وكان طوال الوقت يتساءل: من الذي استخرج السهم من جعبة التاريخ؟... ولماذا؟...

واستمر البحث أياماً دون جدوى. ولم يكشف إلا عما أصاب النفوس من بلادة وسوء ظن بالناس وقلة ثقة بالسلطة والقانون. ولما عجز أهل الظاهر عن إرواء ظمأ الناس إلى الحقيقة، تطوَع أهل الغيب بالكشف عن المجهول. قال ولي الله الشيخ رمضان: "لا تنسوا الحصن القديم...".

الناس لا ينسون حصنهم القديم القائم فوق القبو، فقال الشيخ رمضان: "كان في الماضي يموج بحاملي الأقواس والسهام. ولن تعجز القدرة عن إرسال روح أحدهم للدفاع عن حارتنا البائسة".

وشاع ذلك وتردّد على كل لسان. وإذا بأمّ بسيمة الداية تؤكد أنها رأت - وهي راجعة من توليد امرأة فيما وراء القبو - شبحاً يتسلّق الجدار إلى الحصن.

وظن شيخ الحارة أنه ربما يكون بعض المجرمين قد اتخذوا من الحصن القديم وكراً؛ فاستعان ببعض رجال الآثار والشرطة ودخلوا الحصن من بابه وجاسوا خلاله فلم يلقوا إلا الأحجار والعنكبوت.

وأعلنوا ذلك بقوة ووضوح. وحذَروا الناس من تصديق الخرافات.

وتبادل الناس النظر.

وتساءلوا مستنكرين: "أنصدّق هؤلاء الأفندية ونكذب ولي الله الشيخ رمضان والست الطيبة أمَّ بسيمة؟!".

نبوءة نملة

في ليلة المولد المباركة، غادر حرقٌ القبو يتحسس الأرض بعكازه ويهتف بصوت ضعيف آمن: "حسنة لله يا محسنين". أمام السبيل في طريقه إلى الميدان اعترضه المجذوب نملة وقال له بصوته الذي يشبه صوت من يتدربون على الكلام في المرات الأولى: "يا حرق أبشر..."، فقال له المتسوّل: "اعتقني من لسانك في ليلة الفرج".

ولكن المجذوب قال: "أبشر يا همام... ستحيط بك الأنام... ويقبل عليك الحكام...".

وسمع النبوءة من سمع فضحك طويلاً. وحتى شيخ الحارة همس قائلاً: "جاء دور حرق ليعتلي عرش الحكام...".

في أواخر تلك الليلة، سقط حرق ميتاً في ركن غاص بالمحتفلين. أصابته ضربة خاطئة أم كبس عليه الزحام؟ الله أعلم!

وحول جثته تكاثر المشاهدون ثم جاء الحكام تباعاً: الضابط، وكيل النيابة، الطبيب الشرعي...

وضرب شيخ حارتنا كفاً مع كفّ وقال: "يا لك من ولي صادق يا نملة! تنبأت فصدقت النبوءة... ووقعت المعجزة".

نهاية المعلّم صقر

جرى الواقع في تلك الليلة مثل حلم. جاء المعلّم صقر ابن السبعين بعروسه حليمة بنت العشرين إلى الدور الثاني من بيته ليستقبل أولى ليالي شهر العسل. في الدور التحتاني، جلست الزوجة الأولى أم الأولاد مع ابنها رجب يتبادلان الأفكار في صمت وأسى. الأمّ خاشعة تحت جبال الهمّ، أما رجب، فالغضب يسود دماء وجهه. ونظر الشاب إلى السقف وقال: "شيء لا يصدّق!".

فقالت الأمّ العجوز: "كل ما يقع في هذه الأيام لا يصدّق".

– هذا ينذر بخراب عاجل!

– بل أدعو الله أن يكون بقي له شيء من العقل.

– المخيف أن كل ثروته في خزانته التي بحجرة نومه.

– ولكنه لن ينسى أنّ في ذمته نساء خمساً ورجلاً.

فصاح بغضب: "كم أنا نادم لأنني لم أتعلّم ولم أعمل!".

– كنت ابنه الوحيد فلم يثقل عليك بشيء.

– لو كان أمري يهمه حقاً، ما وضع مصيري تحت رحمة بنت جشعة.

– لا تستسلم للغضب فالغضبان خسران.

– لا بد من عمل شيء.

– فكر بحساب، لا بد أن يوجد باب للأمل.

ففكر الشاب قليلاً ثم قال: "الحلّ أن يعطيني، أنا، وأخواتي وأنت حقوقنا الشرعية".

– مطلب عادل ولكنه سيغضب.

– إن خفنا، ضعنا.

– الحكمة مطلوبة وإلا صارت الخيبة خيبتين...

طيلة العمر لم يجر بينهما إلا ما هو جميل وطيب. حقاً أحبه أكثر من أي شيء في الوجود. حتى رُمي بهذه البنت الصغيرة، وبذاك الحب الشديد، دلّله وأفسده وجعله يواجه الدنيا بلا علم أو عمل. وكانت الخزانة مبعث طمأنينته حتى ضمتها العروس إلى حضنها فلا أمان بعد اليوم.

ووجد مخرجاً في شيخ الحارة، فذهب إليه بوصفه الصديق القديم لأبيه وأفضى إليه بهمومه وقال: "معذرة فأنت أفضل في مخاطبته مني".

فقال له شيخ الحارة: "إكراماً للجيرة والودّ سأبذل ما عندي، والله الموفق".

وعقب صلاة الجمعة انتحى شيخ الحارة بالمعلّم جانباً ونصحه بما يراه عدلاً وصواباً. ولكن المعلّم غضب وقال له ساخطاً: "أيريدون أن يرثوني قبل موتي؟... هذا من إغراء الشيطان ودفعه...".

وتوقع رجب أن يدعوه ليوبّخه، ولكنه تجاهله وقاطعه، فكان ذلك أشد عليه وأفظع. وطاردته المخاوف في اليقظة والنوم. وصمّم على الدفاع عن نفسه وأمّه وأخواته وراح يفكر فيما ينبغي عمله. ولكن

الحوادث لم تمهله فقد رجع المعلّم صقر من سهرة في مولد فوجد مسكنه خالياً وخزانته فارغة. وتناهى الخبر إلى الأسماع من خلال ثورة غضبه. وسرعان ما عرف أن العروس هربت مع ابن عمّها. وانتشر الأهل والأصدقاء مع الشرطة يبحثون ويتحرّون لكنَ المعلّم سقط مفقوداً بين الحياة والموت فأعادهم بائسين إلى حجرته. وهمس رجب في أذن أمّه: "سيتركنا للخراب".

فقالت المرأة بحزن شديد: "علينا الآن رعايته، وليفعل الله ما يشاء".

وسكن المعلّم في غيبوبة متقطعة ولم يعد يشعر بأي أسف على أي شيء. وفي لحظة إفاقة، عرف زوجه وذريته. وخيّل إلى المرأة أنه يريد أن يقول لها شيئاً فقربت أذنها من فيه. وهمس الرجل: "فوق الحمّام...".

ورحل المعلّم ولكن الهدوء لم يرجع إلى بيته قبل أيام. وكانت الأسرة تتساءل طيلة تلك المدة عما عناه الراحل بإشارته إلى السَندرة التي توجد فوق الحمّام.

ورأى رجب أن يقص رسالة أبيه. صعد إلى السندرة على سلّم خشبيّ وبيده مصباح غازي. استقبلته أغشية العنكبوت، أما الفئران، فولّت هاربة. ونظر بعينين ملهوفتين، فرأى سحارة راقدة في هدوء خارج الزمن.

عند فتحها وُجدت مكدّسة بالجنيهات الذهبية.

النَحس

حسن الدهشان تزوج ثلاث مرَات من بنات الأسر. وفي كل مرة، تموت الزوجة قبل أن تضع ما في بطنها. عُرف حسن بعد ذلك بحسن النحس، ورسخ ذلك وانتشر عندما خطب فتاة رابعة ماتت في مدة خطوبتها. وغزاه شعور موحش يدعوه للهرب والانزواء والزهد في الدنيا. ونصحه أهله ألّا يستسلم للهزيمة، وحرّضوه على تخطي حظه، وقالوا له: العبرة بالخواتيم.

واستجاب الرجل فسعى مرة ومرتين ولكن الأبواب أغلقت دونه بإحكام، وخشوه كأنه عزرائيل نفسه، رغم منزلة أسرته وميسور رزقه. وانزوى وحيداً مهجوراً كارهاً للحياة، يمارس عمله بلا حماسة، ولا صديق له.

في ذلك الوقت، انضمت سنبلة إلى خدم الدار كخادمة خاصة لأمّه العجوز التي حدّت الشيخوخة من نشاطها وحركتها. وكانت سنبلة تناهز البلوغ وغاية في القذارة والتعاسة، ولكن أمّ حسن أشفقت عليها من الضياع بعد وفاة أمّها بيّاعة المخلّل التي كانت موضع عطف الست أمّ حسن. وكعادتها مع الخادمات، تعهدتها بالنظافة وقوّمتها بالعصا، راغبة أن تجعل منها بنتاً مقبولة. ولم يكن من الممكن أن تحوّل البوصة إلى عروسة، ولكن الحياة دبّت فيها وظهر لونها الحقيقي وتعلمت كيف تمشط شعرها ومضت تتعلّم أشياء أهم.

ورغم خلوّها من الجمال والجاذبية، فقد تابعها حسن النحس باهتمام، وتلقى منها دفقة حرارة غريبة، ولما أشار إليها، لبّت دون تردّد، فأقبل نهماً وانصرف وهو في

غاية من القرف. وتأمّل ما مرّ به، فهاله الشقاء إذ تمادى واستحكم، وقال: "لا جمال ولا مال ولا خلق...".

واستمرت العلاقة بينهما على مدد متباعدة، وشعر مع الوقت بأنها تتغيّر. لم تعد بلهاء النظرة، ولاح في عينيها ما يشبه الحزن. وكأنها باتت تفهم لماذا يُقبل ثم لماذا ينفر ويشمئز. شعر أنه ينكشف أمامها، وحزن. ولما أشار إليها بعد ذلك، لم تستجب ولاذت بحجرة الستّ الكبيرة. وقال بحنق: "حتى الحشرة لا تخلو من كبرياء...".

وأشعل الرفض ناره.

وتبيّن له أن أمّه قد علّمتها على مرّ الأيام أشياء كثيرة، بل ذُهل لما عرف أنها أصبحت تصلّي وتصوم...

ومرة أمسك بيدها وجذبها بالقوة فتملصت من يده وقالت: "عندي من البؤس ما فيه الكفاية".

وشعر بأنها بقولها عبّرت عن ذاتها وذاته معاً، وقال: "وعندي مثله، فلا غنى لأحدنا عن الآخر".

العمر لعبة

قال لي علي زيدان وأنا أزوره مهنئاً بآخر ترقية له في الشركة: "وجبت التوبة وليعفُ الله عما سلف".

فقلت بارتياب: "سمعتك تقول مثل ذلك مرات من قبل".

فقال بثقة ويقين: "هذه المرة تحمِل عزماً أكيداً".

– ترى، هل فشل أحد اللاعبين أو تآمر عليك نفر من أصحابك؟

– قوة هذه المرة أنها هيمنت عليّ دون سبب محدّد ولكن بدافع إلى تغيير حياة بالية واستقبال حياة جديدة.

ولما أفاق من الدوامة المحمومة، وجد نفسه على أعتاب الخمسين، غريباً في دنيانا، بلا أي مدّخر من مال يركن إليه، تعبق سيرته بسوء السمعة. وجعل يصاحبني ويحادثني ليكتشف الدنيا من جديد، وينخرط في هموم الناس وشؤونهم. وقال لي مرة وهو في غاية القلق: "أثمن ما خسرت على مائدة القمار عمري لا نقودي...".

فقلت على سبيل العزاء: "الحياة تبدأ في الستين...".

فقال بجدية: "أريد أن أتزوج".

– لكل سنّ عروس تناسبه.

– وخاطبت أختي أفكار في ذلك باعتبار أنها أول شخص كان يحثني دائماً على الزواج، ولكنني أريد زواجاً بالمعنى الصحيح...

– ماذا تقصد؟

- أنا لا أبحث عن كناسة العطار، بل أريد عروساً شابة وعذراء ذات جمال يذكر وتعليم لا بأس به...

فقلت له بصراحة: "الزواج مكلف هذه الأيام".

فقال باستهانة: "يمكن تدبير الأمر بعقد سلفة بضمان مرتبي وهو مرتَّب محترم".

- عظيم... وأنت أليس في حياتك امرأة؟

فضحك ضحكة لم تخلُ من مرارة وقال: "لم يكن لديّ وقت للحب...".

وبدأ مسعى مزدوج من ناحيتي وناحية أفكار هانم. كنا نبدأ الحديث بالوظيفة والمرتَّب فنفتح شهية المستمع. فإذا ذكرنا العمر، مط البوز ورُفع الحاجبان. وما إن يذكر الاسم، علي زيدان، حتى تقتحمنا صيحة "المقامر". بل تبين لي أن بعض الناس على استعداد للتسامح مع اللصوص والمرتشين ولكنهم يذعرون من القمار والمقامر.

ولم يكن مفرّ من أن تصل تلك الأنباء إلى صاحبي فحزن وأسف وخيّل إليّ أنه يطعن في السنّ بأضعاف السرعة السابقة. وقال لي متحدياً: "لن أفارق الدنيا إلا وأنا زوج وأب!".

فقلت مجاملاً: "لا يجوز أن نيأس".

- لديّ ما أعتمد عليه... لقد زرت الشيخ لبيب وقرأ لي الغيب...

فلم أتمالك من الضحك، وسألته: "لم أعرفك من المصدقين لهؤلاء الرجال".

فقال متنهداً: "اليأس يدفع إلى أكثر من ذلك...".

وصدق الشيخ لبيب، فقد علمت ست دلال السيئة السمعة المعروفة في حارتنا بمشكلة صاحبي، وكانت لها بنت في العشرين، آية في الجمال والتحرر الذي يثير غضب حارتنا، فما كان منها إلا أن تقرر ضمَّ الرجل "اللقطة" إلى أسرتها. وألقت بالشابة الجميلة سعاد في طريق الكهل الحائر غير عابئة بالتهامس والغمز واللمز، وسرعان ما وقع الحائر الغاضب اليائس في الشباك الذهبي. ولم يكترث لاحتجاج أسرته ولا تحفَّظ الأصدقاء وأنه يصبح حكاية مثيرة من حكايات حارتنا. وقال لي وهو يضحك ضحكة لا معنى لها: "لن أسمح لأحد أن يفسد عليّ سعادتي في فرصتها الخاطفة المتاحة...".

وضغط على يدي بحرارة وقال: "أشكر لك وقوفك معي ومدّي بمودتك، وأرجو أن تقتنع معي بأن من يقبل كأساً، فعليه أن يشربها حتى الثمالة...".

وكرّت الأعوام، وأنجب علي زيدان ولداً وبنتين، ولما أحيل على المعاش، شُغل بأولاده عن أحزانه المتصاعدة، وشُغلت زوجته بجمالها عن كل شيء، وصار بيته مضرباً للأمثال. وكلما ألحَّ عليه الضيق، قال: "ما زلت أخسر أمام المائدة".

دعاء الشَيخ قاف

قُتل عميرة العايق.

اتهم بقتله حنفي الرايق.

شهد الواقعة وأدلى بشهادته الزيني وكبريتة وفايق.

واعترف حنفي الرايق بجريمته. ولما قرأ العجب في الوجوه وهم يقارنون بين ضخامة القتيل وضآلة القاتل، قال: "انقضَّ عليّ فأفلتُ منه ورميته بحجر فأصاب مقتله...".

وآمن من لا يؤمن بالقدر. واعتبر الحادث رغم منزلة القتيل منتهياً، فلم يبقَ منه إلا انتظار النطق بالحكم.

ولكن للحارة لسان خفي، لا يُعرف له صاحب، يهمس بالهواجس ويذيع الأسرار، فتشيع همساته حتى تملأ الجو كالرائحة القوية. قال باختصار وغموض إن الرايق لم يقتل العايق، وإن الزيني وكبريتة وفايق شهود زور، بل إن الرايق نفسه شاهد زور على نفسه كما يقع في نوادر حارتنا.

وسأل إمام الزاوية شيخ الحارة: "سمعت ما يقال عن جريمة العايق؟".

فقال شيخ الحارة بوجه متجهم: "لا نهاية لأساطير حارتنا...".

وتسلل شيخ الحارة إلى بيت الشيخ قاف مهبط البركة وقراءة الغيب. دنا منه قائلاً: "ما من رجل أو امرأة في حارتنا إلا وقد اختلى بك في هذه الحجرة، فأنت تعرف الكثير مما لا نعرف".

فقال الشيخ قاف بصوته النسائي المكتسب من أخوّته لعفريتة من الجن: "سبحان العالم بكل شيء...".

فسأله شيخ الحارة وهو ينفذ إلى أعماقه بنظرة قوية: "من الذي قتل عميرة العايق؟".

- يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أمور إن تبد لكم تسؤكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

فسأله بإصرار: "من قاتل عميرة العايق؟".

فقال الشيخ بأسى: "هو من يجول بخاطرك".

فاشتدت قبضة شيخ الحارة على عصاه ولم ينبس، وقام ليذهب، فقال الشيخ قاف: "سأعفيك من السؤال عما تنوي فعله".

واستمر شيخ الحارة في صمته. صافح الشيخ صامتاً وتحرَك ليغادر المكان، فقال الشيخ قاف بحرارة غير عادية: "سأدعو الله طويلاً أن أراك مرة أخرى".

رحل رفاق العمر وأقران الجيل فبقي هو دون رفيق أو قرين، ذلك عمّ عجوة الرماح. ورحل أبناؤه أيضاً إلا أنور الذي جاوز الثمانين، ويعيش الاثنان وحدهما في البيت القديم على بعد شبر من القبو. وقد يمر الوقت الطويل دون أن يتبادلا كلمة، ويترافقان كغريبين في صمت. غير أنّ الابن بسبب مرض ساقيه يحتاج إلى المشي قليلاً كل بضعة أيام ويحتاج بالتالي إلى من يسنده، فيخفّ الأب إليه ويعطيه ذراعه ويمضي به ما بين القبو والسبيل والناس تنظر وتتعجب.

رغم ذلك، التهم الزمن لحمه وشحمه وأسنانه وثلاثة أرباع بصره وسمعه، ولكنه يتحرك ويأكل ويهضم ويثير لدى الناس الابتسام وأحياناً الغيظ والحنق.

- ذلك الذي يأكل آجال الشباب بطول عمره.

ويوم المزاد لبيع خرابة الأوقاف يومٌ يُذكر.

بدأ اليوم بهجمة مرضيّة على الابن أنور ألزمته الفراش.

وما يدري المجتمعون للمزاد إلا وعمّ عجوة الرماح يقبل حاملاً حقيبة صغيرة.

وراقبه شيخ الحارة وهو يفوز بالأرض في دهشة بالغة.

ولم يتمالك أن يسأله: "ألم يكن الأجدر بك أن تبقى إلى جانب ابنك المريض؟".

فأجاب عجوة بثبات: "تركته في رعاية من تغني رعايته عن كل رعاية".

فسأله الشيخ وهو يداري غيظه: "لماذا لم تترك الأرض لغيرك فتنفعه وينتفع بها الناس معه؟".

فقال عجوة: "سأتفق مساء اليوم مع مقاول بناء ولن يمرّ عام حتى أنتفع بها وينتفع الآخرون...".

تلقى رشاش عربة الرش على ساقيه النحيلتين الحاسرتين وهو يجري ويهلل وراء العربة. عند السبيل لحقت به جدته فجذبته إليها وأحاطته بذراعيها قائلة: "دائماً تجري وراء ما يؤذيك...".

واحتجّ صارخاً على حين راحت تقرأ البسملة فوق رأسه. ورآها شيخ الحارة فاقترب منها وهو يقول: "يا ست فرجة أبعديه عمّا يؤذيه حقاً...".

فقالت العجوز بامتعاض: "لن ترحمنا ألسنة السوء".

– لكنه في دارك سيحظى بخير تربية.

– لن ترحمنا الألسنة وسوف يعرف ذات يوم مأساة أمّه وأبيه...

فقال الرجل بأسف: "حارتنا لا ترحم، فلماذا لا تهاجرين به إلى مكان جديد لا ماضي له فيه؟".

تقلّصت عينا المرأة الذابلتان وتمتمت: "أين وكيف نعيش بعيداً عن حارتنا؟".

فقال شيخ الحارة: "إذن، هو القدر يا ست فرجة".

فهتفت العجوز: "وربّك رحمن رحيم".

وخرج الشيخ بشير من الزاوية ليمشي قليلاً في الهواء الطلق، فرأته فرجة واتجهت نحوه دون أن تترك حفيدها الساخط، وسلمت على الشيخ، وقالت: "يا شيخ بشير، خذ طاقية حفيدي وخبّرني عن مستقبله...".

فقال الشيخ: "لا أنسى أفضال أبيه الغامرة وذكرياته الطيبة، وأنا في خدمتك دائماً يا ست فرجة".

وشمّ الطاقية، ومسح بيده على رأس الصبي ثم قال: "لا أرى إلا غيماً...".

فسألت العجوز بقلق: "ماذا يعني هذا؟".

- لا أرى إلا غيماً... ليس عندي ما أضيفه.

- بل عندك ولا تريد أن تكدّرني...

- أبداً... ولكنك تعرفين الخطر وعليك بالحذر!

وذهبت الجدّة والحفيد وهي غير راضية.

وتحول شيخ الحارة نحو الشيخ بشير قائلاً: "ماذا كان يضيرك لو أسمعتها كلمة تطيّب الخاطر؟".

فقال الشيخ: "نحن قد نختصر ولكننا لا نكذب، ولقد قلت للمرحوم قدري والد الصبي ولكنه لم يعنَ بكلامي فكان ما كان...".

فحدّق شيخ الحارة فيه باهتمام وسأله: "كيف كان ذلك؟".

فقال الشيخ بشير: "أنت تذكر كيف جاء شاعر الربابة ذات أصيل بشبابه وجماله وهو يغني:

أهل الهوى فاتوا مضاجعهم

شدّ ما استقبلته الحارة بالحماس، وسرعان ما دعاه صاحب المقهى ليتصدر سهراتها في صحوة شاملة هزّت جميع النفوس...

مضى الرجل يغني والحارة تبهر وتطرب حتى لاح لي في عالمي الخاص ما كدر صفوي، فانتظرت حتى رأيت المعلم قدري قادماً واعترضت طريقه وقلت له إن الصقر

سينقضّ على الدجاجة، فلم ينتبه إلى قولي وحسبني أسأله إحساناً، فأعطاني بكرمه المعهود...".

فسأله شيخ الحارة: "ألم يسألك عمّا تعنيه؟".

– أبداً... ولا بدا معنياً بذلك...

– ولماذا لم تكاشفه بما يخبئه القدر؟

– نحن لا نتجاوز الخط وإلا فقدنا النعمة!

– ثم ماذا؟

– وإذا بمطرب العشق يختفي، وتختفي معه ست بدرية حرم التاجر الكهل الثري تاركة طفلاً في عامه الأول، وإذا بالحارة تفور بالواقعة ويسقط تاجرنا الوقور فاقدَ الحياة.

وساد الصمت قليلاً ثم قال شيخ الحارة: "قد تموت المرأة والرجل قبل أن يثب الصبي للانتقام".

– كل شيء في علم الله.

– وما معنى الغيم الذي حدَثت الجدَة عنه؟

– إنه يعني في معارفنا الحيرة والفتن، والله أعلم.

رجع إلى الحارة قبل الفجر بقليل. تبدت الحارة في سبات مغمضة الأجفان، ولم تشهد في تلك الساعة سوى شبحه المترنح وظلمة الليل الكثيف. وتقدم بحذر حتى دخل في روضة تفوح برائحة مسكرة. من أين انسكب ذلك العطر الفوّاح؟ واستيقظت حواسه لتجيب: إنه ذيل امرأة عابرة، بقيّة أنثى تركته خلفها وهي تعبر من جانب إلى جانب. لماذا تنغمسين في الظلمة في تلك الساعة من الليل؟... وحدك يقودك القلب الخافق والمصير المجهول.

وملأ صدره بالعبير حتى أذهلته الفتنة. وتسمرت قدماه حيناً. وراح يقطع الحارة ذهاباً وإياباً على مهل كأنه خفير الدرك. لو جاء مبكراً دقائق، لربما رأى منظراً فريداً في الهزيع الأخير من الليل. وربما كان الأمر عادياً وأبعد ما يكون عن جوامح خياله.

ولكنه مال إلى الظن المجنون ليخلق من الهواء مغامرة. وتوقع أن ينكشف سر هنا أو هناك في هذه الحارة المتلفعة بالوقار ووصايا الأبرار، وكلما مرت امرأة صباحاً أو مساء، تذكّر وتشمّم وتنهّد، ثم جعل مرة أخرى يتشمّم...

شيخون

رجع شيخون إلى الحارة بعد غيبة حتى كاد يُنسى. لم يُعرف عنه شيء في غيبته وانقطعت أخباره. أما أسرته، فقد انقرضت إلّا عجوزاً فاقدة الوعي بما حولها. رجع شيخون شديد الثقة بنفسه، جوّال النظرات، وهّاباً للكلمات المباركة المثيرة، فتساءل الناس في دهشة: "متى أدركته الولاية فصار من المقربين؟!". ولفت الأنظار وأسر كثيراً من القلوب، أما صفوة الحارة، فيرمقونه بحذر ولا مبالاة ولكنْ أبوا أن يتعرضوا له بما يكره.

وتمادى شيخون في الكشف عن الغيب وعلاج المرضى وحلّ مشكلات المعذبين في الأرض حتى وقف يوم السوق عند حوض البهائم وصاح بأعلى صوته: "قبل مغيب شمس الغد يتصالح كل إنسان مع همومه".

ومضت الحارة منذ الأصيل تزدحم بطلاب الشفاء وتلاحمت خواطرهم.

– هذا رجل أمين صادق.

– ترقّبوا حدثاً لم يُشهد مثله من قبل.

وجاء شيخون من المقهى محاطاً بكوكبة من العشاق، وقلّب عينيه في الجمع غير مبالٍ بكثرتهم، ورفع يده فسادَ الصمت. وقال الرجل: "اسمعوها كلمة طيبة تسبق حدثاً طيباً".

فهلّل الناس وكبروا قبل أن يسود صمت الانتظار واللهفة.

عند ذاك سُمعت ضجة...

وشقّت مجموعة من الرجال الزحام يتقدمهم شيخ الحارة. ولما بلغوا موقف شيخون، حضنه اثنان بشدّة، ثم تعاون الكل على إلباسه جلباب المجانين الهاربين... وكان رئيسهم يقول: "يا لك من رجل متعب!".

كان ما كان عندما توسطت الشمس السماء. وكان الجو غاية في الاعتدال والأمان. ودون مناسبة قالت الشيخة بهية: "قلبي ينذرني بخوف غادر". وإذا بنداء خفيف يتسلل إلينا، ويستمر فلا ينقطع ليأخذ أنفاسه، وينشط ويلعب ويعبث ثم يأخذ في الشدة ويزيد بعد الشدة شدة حتى يتجسد عنفاً أغبر ويزمجر في الأركان وتتردد أصداؤه كالعواء. وأكثر من صوت صاح: "اللهم عفوك ورحمتك".

ولكن انطلق في الجو طوفان من ريح متضاربة محملة بالأتربة وألوان سرعان ما خضع لها كل شيء. طارت الآنية والأقفاص والكتاكيت من فوق الأسطح، وصفقت الأبواب والنوافذ، وامتزج الصراخ بالبكاء، وتداخل النواء في النباح في النهيق. ومع كل دقيقة اشتد العنف وتمادى.

وأفلتت الأصوات من معاقلها:

- إنه يوم القيامة.

- لن نجد البيوت فوق الأرض.

- ها هو الشيطان يكشف عن خبايانا...

واستمر العنف الكوني حتى آمن المذعورون بأن النهاية آتية لا ريب فيها. ومسّ الانزعاج عقل شيخ الحارة وقلبه. وكي يقنع نفسه بأنه يؤدي واجبه، صاح بصوت ضاع في الصخب: "أغلقوا الدكاكين... أغلقوا الأبواب والنوافذ... لا يبقَ أحد في الطريق". وآوى إلى

صحن الزاوية. تبادل مع الإمام نظرة حائرة. وسأله أحد اللاجئين إلى الزاوية: "ماذا أنت فاعل يا شيخ حارتنا؟".

فأجاب بنبرة غاضبة: "نبدأ العمل عندما تسكت العاصفة...".

– ولكننا لم نشهد مثل ذلك من قبل.

فصاح به: "لست مسؤولاً عن الرياح".

وراحوا يتخيلون أحداثاً كثيرة فسالت دموع غزيرة. وأراد رجل أن يشارك في الغيب فمضى يحدّث من معه عن حلم رآه أمس على حين اشتدت العاصفة وتمادت، فهتف رجل بلغ منه اليأس منتهاه أن دعونا من الأحلام، فقد اكتسح الواقع كل حلم.

وتواصلت العاصفة حتى المغيب وقيل حتى هبوط الليل. وذهبت كما جاءت بغير تخمين أو حدس. يا سبحان الله، آوى الكون إلى الصمت الثقيل كأنما يفصح بصمته عن أسفه. وضجّ المكان بضوضاء السلامة وجعلت الأضواء تطل من النوافذ والأركان، وصدرت من الحارة نهدة عميقة طويلة اشتركت فيها جميع الصدور. وإذا بصوت الشيخة بهية يرتفع متهدجاً: "ما ضاع ضاع وعليه العوض". وغضب شيخ الحارة وصاح بعصبية: "كفّي عن النكد وحسب الناس ما بهم".

ولكن الأصوات تجاوبت محفوفة بما يشبه الاستغاثة؛ هو الخراب والنهب والسلب، ضاعت الأموال وهتكت الأعراض.

وتابع شيخ الحارة تلك الأصوات بقلق شديد.

ومضت الأصوات تؤكّد أن اللصوص زحفوا من الحفر والثقوب ومن حيث لا يتوقع أحد، وازدادوا عدداً وضخامة حتى سدّوا عين الشمس، وأنهم انتهزوا فرصة هبوب العاصفة بل قيل أنهم هم الذين أثاروها واستدعوها من مكانها في السماء.

وحصل هرج ومرج وحزن شديد، ولم تعد الحيرة تفرّق بين الشيخة بهية وشيخ الحارة.

واجتمعت قلة ممن ظلّت ثيابهم بيضاء عند باب الحصن القديم، يتبادلون الهمس والشد على الأيدي في الظلام ويتطلعون بعزم ونفاد صبر إلى طلوع الفجر.

الصَرخة

في ظهيرة يوم، دوت صرخة ذات أعماق مظلمة كأنها صدى بدن يتمزق. وتواصل الصراخ فهرع كثيرون نحو بيت ستّ عدلية. ووقع صخب وتضاربت نداءات، وتصاعدت الحركة والاضطراب. لكنّ الصراخ لم يطل، همد ثم خمد. وتساقط كل شيء في السكون وساد الصمت. ثم ارتفع الصوت مؤذناً بالنهاية. وجرى الخبر بسرعة اللهب أنّ كاملة الشابة الجميلة التي طُلّقت ضحى اليوم قد سكبت الجاز على ملابسها وأشعلت النار.

قالت أمّ علوان، أقرب جارة لستّ عدلية خالة الجميلة المنتحرة: "لعنة الله على الشيطان الرجيم، من يصدّق ما رأته العين؟ من يصدّق أن كاملة تحرق نفسها؟ الجميلة الطيبة التي لم تفتها فريضة مذ بلغت العاشرة، العروس التي لم تمضِ شهور على دخلتها، أي امرأة هي أحق بالحياة منك يا كاملة!".

وجففت ستّ عدلية، خالة المنتحرة، دموعها وقالت: "انغرس في قلبي صراخك، وصورة وجهك الذي شوهته النار، ربنا ينتقم لك من الظالم زيد الفقي الذي قسا قلبه وتحجّر، ماذا جنت البريئة حتى تكسر نفسها وتطلقها؟ منك لله يا زيد...".

وبلغ هذا الكلام المعلّم زيد الفقي فلم ينبس. الحق أن خبر الانتحار اجتاحه فقلبه وشتّت عقله. ومرّت به لحظات ضاق بالحياة وكرهها. ولكنه طارد أحزانه متسائلاً: ماذا كان في وسعي أن أفعل بعد أن عرفت ما

عرفت وعرفه الناس جميعاً؟ كل واحد في الحارة عرف أن أمّ زوجه صاحبة بيت دعارة في الضاحية، وأنها ليست كما أذاعت أختها ستّ عدلية قد تزوجت بمغربي ورحلت معه تاركة لها ابنتها كاملة. الأقرباء تساءلوا عن هذا الذي يقال، والأصدقاء نبهوني إلى صون سمعتي ودفع الأذى عن تجارتي. وكلما حدّثت أحداً عمن كان له شأن في الزواج، أنكر علمه بأي شيء، وستّ عدلية قالت لي: نحن شرفاء وما خدعناك. أما كاملة، فكادت تصعق وصاحت: "أنا لا أصدّق... أمّي شريفة... وربّنا بيننا وبين الكاذبين". ماذا كان في وسعي أن أفعل؟... اقتنعت بما أكّدته أمّي من أنهم كذبوا عليّ وخدعوني طمعاً في مالي، وكان لا بدّ أن أغضب لشرفي، وقد ثُرت مثل وحش وطلقت زوجتي... وها هي تنتحر... هي باليقين صادقة ولم تكن تعرف شيئاً عن سيرة أمّها. لم يكتشف تلك السيرة الخفية إلّا ذلك الشيخ الفاضل حسين أبو المكارم... وإلى الله ترجع الأمور جميعاً...

وحقاً كان الشيخ أبو المكارم مدرّس اللغة العربية هو من سرّب الخبر في الحارة وعمل على أن يصل إلى الزوج الأعمى زيد الفقي. لم يتخذ القرار بيسر ولم ينفذه إلا بعد حوار طويل مع قلبه وضميره. واعتقد أنه اعتصم بالحق حين قرر ما قرر، وأنه حكم لمبادئه بعيداً عن قلبه وأهوائه. وترامى إليه نبأ الانتحار، فهزّه هزّة خلعته من جذوره. وشعر برعب كأنه مطارد. وقال كيف أن أكبر إثم ارتكبته التعاسة هو حرقها للوجه الجميل...

واضطرب اضطراباً نثر ذكرياته من مكامنها...

أول يوم رآها وهي تزور بصحبة خالتها الستّ أمّ حنفي صاحب البيت الذي يقيم في دوره الثاني، ولاحظت أمّ حنفي تغيّره وكانت تدرك مدى سذاجته وبراءته فسألته مرّة: "هل أعجبتك كاملة؟".

فضحك الشيخ وقال: "إنها ملاك كريم...".

فقالت المرأة: "يا بخت من يجمع رأسين في الحلال".

ولكنه استمهلها حتى يُتم استعداده.

وسعت المرأة بعد ذلك باسمه إلى ستّ عدلية خالة كاملة، وبدا أن الأمور ستسير في مجراها الطبيعي.

وهنا تذكر من نصحوه بالتحري ليعرف الأصل والفصل، فأجّل كتب الكتاب إلى حين، وفي فترة الانتظار تقدّم المعلّم زيد الفقي إلى ستّ عدلية سائقاً بين يديه كل مغريات العزّ والرفاهية...

وتُرك الشيخ المتردد وزفّت كاملة إلى زيد الفقي.

وحزن الشيخ أبو المكارم حزناً شديداً حتى اسودّت الدنيا في ناظريه، وذاق هواناً غير مناسب بتاتاً لوقاره التقليدي. وقال لأمّ حنفي: "باعوني وكأنني لم أكن شيئاً...".

فقالت المرأة تعزيه: "تأخرت أطول مما يجب، وكل شيء قسمة ونصيب...".

ثم جاءه شيخ الفراشين بالخبر المفزع عن أمّ كاملة. تلقاه بفزع وبإحساس آخر طرده بعنف عن وعيه. وفكر

فيما يجب فعله، وقال لنفسه: ليكن الحكم للحق والخلق الصريح. وكان من الأمر ما كان، وكانت من عواقبه ما كانت.

ارتعب أبو المكارم من الحادثة، وتمنى أن يلوذ بالفرار ولكن إلى أين؟ وكلما هرب من جحيم ذاته، وقع في جحيم ذاته، حتى وجد شيئاً من الراحة وهو يقلد الصرخة الممزقة التي انطلقت من حنجرة الشابة الجميلة.

ومما تشهد به أمّ حنفي أن الشيخ جُنّ بالفعل قبل أن يفطن الناس إلى جنونه بمدة غير قصيرة.

نصيبك في الحياة

بالدقة، لا ندري متى بدأت الظاهرة. لكل شاهد قصته، أما الوقت، فقد ضاع ترتيبه. يقول عمّ حنفي السقاء: "ذهبت للبيه الفطاطري لأشتري فطيرة بالسمن، وأخذ الرجل كرة العجين وراح يبسطها بالنشاب ويرققها بصفحة راحته، وإذا به يكف عن عمله فجأة ويجهش في البكاء، وذهلتُ، أنا، وبُهتُّ، وسألته عمّا به وما يطلب من عون ولكنه استمر يبكي، ويبسط يديه ويقبضهما ويواصل البكاء، ويجمع الناس أمام دكانه حتى جاء أهله فحملوه إلى بيته وهو لا يكف عن البكاء". وتقول أمّ بخاطرها بياعة المخلل: "جاءتني ستّ أم علي بوعاء لتملأه بالمخلل، وفيما هي تشير إلى الخيار والفلفل توقفت فجأة، وجمدت ملامحها، وجعلت تبكي بحرارة، ويزيد بكاؤها حدة وغزارة كلما مضى الوقت، فملكني الخوف من قمة رأسي حتى أسفل قدمي، وخفت أن يكون صدر مني ما آلمها، وتجمع الناس وهرع إليها زوجها من دكانه ومضى بها إلى بيته والناس يتبادلون النظرات المليئة بالانزعاج والدهشة...".

وتعددت الحكايات وتنوعت، وكثر الضحايا من الرجال والنساء. وبلغ الخبر شيخ الحارة فصاح غاضباً: "لا تكفون عن اختلاق البدع والمفتريات...".

ولكن سرعان ما كف عن اللوم والتفريع عندما شاهد خفيراً وهو يجهش في البكاء، فقال لإمام الزاوية: "هذه مصيبة جديدة في حارتنا التي لا تشبع من خلق المصائب".

فقال الإمام: "الناس تداوي الحالة بالحمامات الدافئة والمشروبات الباردة".

وكانت أم هنية البلانة قريبة من الحديث فدخلت فيه قائلة: "لا علاج للحالة إلا بالزار...".

فسألها الإمام: "وايش دخل العفاريت في البكاء؟".

فقالت بيقين: "لا يبكي إنسان بلا سبب إلا بمس من عفريت ولن يتركه العفريت إلا بدقة الزار".

فقال شيخ الحارة بحزم: "لا أوافق على اعتبار الحارة بكاملها ممسوسة، ولكنني سأرفع الأمر إلى مفتش الصحة".

ومضى الرجل إلى سعادة المفتش وأبلغه الأمر، وقال المفتش: "إنكم لا تفرقون بين الحقيقة والوهم...".

فحلف له بأنه رأى الدموع بعينيه، وأنه لا يكاد يخلو بيت من دموع. وفي صباح اليوم التالي، زار المفتش الحارة مصحوباً بحرّاس وتمورجية. وهرع إليه الناس وهم يصيحون: "أغثنا يا حضرة المفتش". فرمقهم بامتعاض، ولكن امتعاضه سرعان ما انقلب إلى دهشة عندما شاهد الباكين والباكيات. وسأل المفتش شيخ الحارة: "ألم يجد جديد في حياتكم يمكن أن يكون السبب في ذلك؟".

– أبداً... لا جديد... حياتنا هي حياتنا بمسرّاتها وأحزانها...

وانتقل المفتش من بيت إلى بيت، وجال في الحارة من أوّلها إلى آخرها فلم يترك دكاناً أو مقهى، والسبيل

والكتاب وحوض البهائم، وفحص الحمير والبغال وألقى نظرات طويلة على جدران الحصن القديم والقبو. وجلس في دكان شيخ الحارة منهوك القوى تائه النظرة. وارتفع صوت أمّ هنية من وسط الجمع أمام الدكان: "الزار... الدواء الوحيد في الزار يا حضرة المفتش...".

فصاح شيخ الحارة غاضباً: "اسكتي يا ولية...".

وتوقع كثيرون أن يتكلم المفتش ولكنه لم ينبس. وبدا أنه يغوص في التعب أكثر وأكثر حتى قال شيخ الحارة لنفسه: "يا ربي... المفتش على وشك الانهيار".

ولاحظ ذلك أيضاً المعلم حسن الآلاتي صاحب بيت الطرب والغناء، فاقترح على شيخ الحارة أن يأخذه إلى بيته ليستريح في حجرة النافورة، ليهيئ له شراباً بارداً وزهراً يانعاً، فاستسلم شيخ الحارة لرأيه إنقاذاً لهم جميعاً من الحرج.

ذهب المفتش إلى بيت الآلاتي، وراح الناس يتحاورون في مأساتهم، وقال رجل: "أراهن على أن المفتش يوشك على البكاء...".

فقال شيخ الحارة بحنق: "إنه إنسان... وكل إنسان قابل للعدوى...".

ولكن من بيت الآلاتي تهادت إلى الجمع نغمة راقصة، وطبل وتصفيق، ونظر شخص من بيت يقابل بيت الآلاتي ويكشفه، وصاح: "إنه يرقص... ورقصه لا مثيل له...".

وسمع صوته وهو يغني:

نصيبك في الحياة لازم يصيبك

واستمر فيما بدا يرقص ويغني.

وتقاطر الناس من جميع الأركان وأحدقوا ببيت الآلاتي.

وكف الباكون عن البكاء بغتة!

وأغرق الجميع في الضحك...

نبقة في الحصن القديم

نبقة هو الابن الأخير لآدم السقاء، أنجبه بعد وفاة تسعة في الوباء الكبير. ونذره لخدمة الزاوية إذا حفظه الله له. ووفى بنذره فسلّمه لإمام الزاوية عندما بلغ السابعة، وقال لأصحابه: "خدمة بيت الله أشرف خدمة، وبين الصلوات والأدعية والدروس يتشرب قلبه النور والبركة".

وأكثر الوقت قضاه نبقة في الزاوية، وأقله في بيته أو مع الصبية في الحارة. ورضي الإمام عنه ونوّه بنشاطه وأمانته. وأخذ يدنو من العاشرة ولكنه مُني في أثناء ذلك برحيل أبويه. وعُرف عنه حبه للحصن القديم القائم فوق القبو. وكان يسأل كل من هبّ ودبّ: "متى يفتح باب الحصن الموجود داخل القبو؟".

ويسمع إجابة واحدة تقريباً هي: "يفتح مرة في العام عند زيارة رجال الآثار ولكنه صار منزلاً للعفاريت".

ولما بلغ نبقة العاشرة، استأذن الإمام في زيارة قبر والديه، فقال له الإمام: "ليس الوقت بموسم زيارة".

ولكن الصبي أصرَ متعللاً بحلم رآه. وذهب، ولم يرجع في الوقت المتوقع، ومرّ على غيابه ثلاثة أيام. وقلق الإمام وظنّ أن الصبي اختار لحياته سبيلاً جديداً أو أنه حدث له حادث. وكاشف شيخ الحارة بمخاوفه وأرسل الشيخ خفيراً للبحث عنه، ولكن قبل انقضاء اليوم الثالث بساعات رأى الصبي قادماً من ناحية القبو، ووجهه مكتسٍ هدوءاً لا يناسب ذنبه. وسأله الإمام معاتباً: "أين كنت؟".

وإذا به يقول بهدوء: "كنت في ضيافة الراحلين وقد ملؤوني معرفة وقدرة...".

فتفحصه الإمام بنظرة ذاهلة وقال: "أجننت يا نبقة، أم مسّك عفريت؟".

فقال نبقة: "أستودعك الله، أنا ذاهب".

- إلى أين؟

- لم أعد أصلح لأكون خادماً لك، ولا أنت تصلح لتكون سيّداً لي...

فصاح الإمام: "عليك لعنة الله...".

ومنذ تلك اللحظة عرفت الحارة الوجه الآخر لنبقة بن آدم السقاء.

باغت الناس بجرأة لم يتصور أحد أن تصدر عن صبي في سنّه ولا حتى عن رجل مجنون. يعترض كثيرين من وجوه الحارة. يبدأ كلامه عادة بقوله: "اخجل من نفسك!"، أو "كيف سوّلت لك نفسك أن تفعل ذلك!"، أو "أما زلت تتظاهر بالوقار؟". وعقب تلك الافتتاحية يذكر فضيحة من الفضائح الأخلاقية أو المالية. وحصل صخب وغضب. وتساءل الناس من أين يجيء ذلك الصبي بتلك الأسرار؟ وذهب بهم سوء الظن كل مذهب. ووقعت فتن وخصومات وانتشر القلق أيّما انتشار. وقيل بحق أنّ الحارة ركبها عفريت. وكبر الأمر على إمام الزاوية، فاعتبر نفسه مسؤولاً على نحو ما عمّا يحدث، وأصابه شيء من سوء الظن الذي تفشى في كل

مكان. من أجل ذلك، ذهب إلى نبقة وصاح به: "عُد إلى زاويتك".

فقال له نبقة بقوة أشد: "عُد، أنت، إلى زاويتك، أما أنا، فلا زاوية لي".

ورماه الإمام بالكفر، وانقضّ عليه مصمّماً على أخذه بالقوة، ولكن الصبي دفعه بالقوة الجديدة التي استمدّها من المجهول، فتقهقر الرجل فاقداً توازنه وهو يرتجف من الذعر...

وقدم شيخ الحارة مهرولاً، فقال له الإمام: "أدركِ الحارة قبل أن تفقد سمعتها إلى الأبد".

فصرخ الصبي: "ما نطقت بحرف واحد كاذب".

فصاح شيخ الحارة: "القانون يجب أن يُحترم".

فردّ عليه الصبي وهو يزداد جنوناً: "أنت لا تحترم نفسك، فكيف تطالبنا باحترام القانون!".

وغضب شيخ الحارة غضباً شديداً، وهجم على الصبي بعصاه. ضربه أولاً بخفة فلم يبالِ ولم يتحرك. فراح يقوي من ضرباته والصبي يتلقاها بهدوء والناس ينظرون في ذهول، وبدا أن الصبي يزداد قوة واحتمالاً وأنّ أمراً بالغ الغرابة يقع في الحارة على مرأى من أهلها...

ما رُوي لي بعد ذلك من حكاية نبقة غير متسقٍ ومُغالىً في غرابته. فثمة كلام غامض ومتضارب عن معركة نشبت بين الناس وشملت جميع الأركان، وأنها لم تنقضِ قبل هبوط المساء وتدفق أمواج الظلام. وقيل

أن نبقة قُبض عليه، وقيل أن الأقدام داسته. أما سكان القبور، فقد أكدوا أنه حيَ، وأنهم رأوه يتجوّل فيما وراء القبو، وأنه كان مع كل خطوة يكبر ويتضخم ويتعملق ويمتد في جميع النواحي حتى تعذَّر عليهم أن يروا رأسه المنطلق في الفضاء.

وما زال قوم يعتقدون أنه مقيم حتى اليوم في الحصن القديم.

الفرن

وقعت الواقعة. هربت عيوشة مع زينهم صبي الفران. انفجر الخبر وترامت شظاياه إلى جميع أنحاء الحارة. في كل ركن، تنهد قلب طيب وقال: "سترك يا رب سترك. يا مصيبتك يا عمّ جمعة يا طيّب". وعمّ جمعة المقصود هو والد عيوشة وربّ أسرة وأب لخمسة جدعان، وبنت واحدة هي عيوشة التي قدّر لها أن تقذف به من فوق كرسي الوقار والكرامة.

ولم يجر للبنت ذكر إلّا بعد الفضيحة. وقيل أنها كانت جميلة وخفيفة الروح. أما أمّ راضي بيّاعة المفتقة، فقالت: "جميلة لا أنكر ولكنها جريئة وترسل نظرتها البراقة إلى أعماق من تحادثه حتى ينسى ما يتكلم فيه".

أما عمّ جمعة وأبناؤه، فقد شُدّت إلى الأرض أعينهم وانطفأت شعلة أرواحهم. ودفعهم الغضب بادئ الأمر إلى الانتشار والبحث والتحفّز، ولكن دون جدوى، حتى قال شيخ الحارة لعمّ جمعة: "قد يجرّ الخطأ الإنسان إلى الجريمة وهو الخسران في الحالين...".

وتمالك عمّ جمعة نفسه خوفاً على أولاده، وقال لهم: "اعتبروا أن أختكم ماتت، ليرحمها الله واتركوا الخلق للخالق...".

وكل شخص تصور الحكاية كما يحلو له. ولكنها بصفة عامة لم تخرج من المتوقع، وهو أن البنت أحبت الولد وهو يذهب بالعجين ويرجع بالخبز. ولم يكن من الممكن أن يطلب صبي فران بنت تاجر أقمشة ميسور

الحال، فلاح للعاشقين فكرة الهرب وجمعت عيوشة من الحلي الخاص بها وبأمَّها ما استطاعت وهربا معاً. ولم يتصور منصور أن يكون للحكاية نهاية غير الزواج، فزوجهما في مكانهما المجهول.

هكذا، انتهت حكاية عيوشة وزينهم، أما أسرة عمّ جمعة، فقد اندمل جرحها في زمن طويل، ورجعوا إلى حياتهم المألوفة حتى اعترضت مجرى حياتهم الأزمة المعروفة، وأفلس التاجر الميسور وراح يعرض بيته للبيع...

وفي ذروة تعاسته، جاء رسول لم يعرفه بادئ الأمر يحمل إليه المال المطلوب ويقول: "هذا المال مرسل من ابنتكم عيوشة، وشاءت الإرادة الإلهية أن يحمله إليكم زوجها زينهم".

وأخبر الرجل حماه أن زوجه باعت الحليّ التي أخذتها وفتحت له فرناً وجاءهم اليسر بعد العسر.

وقال شيخ الحارة لإمام الزاوية: "أرأيت؟... رجعت البنت في الوقت المناسب فلم تجد حاجة إلى التكفير عن خطئها...".